

عرض كتاب

"التاريخ الإسلامي والعلاقات الدولية... منظور حضاري مقارن" (*)

عرض: شيماء بهاء الدين

إن بناء حضارة واعية بذاتها، صالحة للعلاقات فيما بين مكوناتها، فاعلة في علاقاتها الدولية ومحيطها العالمي لا يتطلب فقط إدراك الواقع المعاصر، إنما أيضًا تتبع خرائط التاريخ وفهم منحنياتها.

ومن هنا تتبع أهمية دراسة تاريخ الحضارات، بأبعادها المختلفة الرسمية وغير الرسمية، وليس المقصود بالدراسة في هذا الصدد مجرد استغراق في تفاصيل سلاسل ملوك ورؤساء وحلفاء، بل الجدوى الحقيقية في الوعي بمدخل التأثير وإدراك سمات المجتمعات وأنماط تفاعلاتها وموضوعات قضاياها وأزماتها. فتراثنا -وفق د.نادية مصطفى في كتابها "التاريخ الإسلامي والعلاقات الدولية.. منظور حضاري مقارن"- هو تاريخ الفكر والرموز والمؤسسات والتفاعلات، هو تاريخ الأمة.. تاريخ الشعوب. وذلك إنما يتطلب تجاوز الدراسة التاريخية التقليدية حبيسة أقسام التاريخ بالجامعات إلى التطوير الموضوعي والمنهجي؛ بحيث يجري الاهتمام بالأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والتفاعلات الحضارية بين الشعوب في ضوء هذا كله. هذا موضوعيًا، أما منهجيًا، فلا بد من تجاوز الرصد التقليدي، فالرصد على أهميته هو بمثابة خطوة تتبعها خطوات.

لماذا من منظور حضاري؟؟

نجد الإجابة في تقديم المستشار البشري للكتاب، والذي يتحدث عن السيطرة الثقافية، والتي تجلت إحدى صورها في دراسة العلوم السياسية بشتى فروعها؛ ومنها العلاقات الدولية التي كان تاريخنا دومًا هو الحاضر الغائب عند دراسة تطورها، في

* د.نادية مصطفى، العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي... منظور حضاري مقارن، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، دار البشير للثقافة والعلوم، 205. (جزءان)

ظل مركزية أوروبية مفرطة. هذه الحالة لعلم العلاقات الدولية التي اعتبرتها د.نادية مصطفى دافعاً رئيسياً لعملية بناء المنظور الحضاري الإسلامي للعلاقات الدولية مقارنة بمنظورات أخرى.

ذلك المنظور الذي يقوم بناؤه على ثلاثة مستويات: مصادر تأسيسية وهي الأصول الثابتة والاتجاهات الفقهية المتغيرة، ومنظومات القيم التأسيسية والفرعية، مصادر بنائية مكملة استناداً إلى خبرات تراث الممارسة والحركة عبر التاريخ الإسلامي، ثم مصادر بنائية أخرى تستند إلى التراث الفكري اللازم لدراسة العلاقة بين قضايا ثلاث رئيسية في تاريخ المسلمين؛ الوحدة، الجهاد، الإصلاح. وذلك بما يسهم في تقليل الفجوة بين التاريخ والواقع الراهن.

تلك المنظومة إنما تعكس مختلف التحديات التي واجهت الأمة عبر تاريخها؛ سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً. وهنا يتجلى مفهوم الحضاري الذي يتجاوز الثنائيات سواء بين مصادر التنظير أو الداخل والخارج، أو أوجه الظاهرة السياسية والاقتصادية والثقافية.

أهمية دراسة التاريخ الإسلامي الدولي:

ترى د.نادية مصطفى أن موضع التاريخ الإسلامي الدولي شديد الأهمية في هذا السياق؛ ذلك لأن العديد من صراعات اليوم في عالمنا العربي والإسلامي هي في الأصل ذات جذور تاريخية، وذات أبعاد دينية وثقافية إلى جانب الأبعاد الاستراتيجية الأخرى. كما أن الأنماط والنماذج المستخلصة في هذا السياق تساعد في فهم تلك الصراعات وتسكينها في سياق تطور النظام العالمي الحالي. الأمر الذي يتطلب الاستدعاء المنظم للذاكرة التاريخية وتجارب الصراع والتعاون.

الأمر الذي يتطلب الدراسة وفق ميزان... ميزان تضعه مدرسة المنظور الحضاري (عند تناول الجزئيات، أو الكليات) بخلاف دراسة المنظورات الأخرى للتاريخ الإسلامي.

وبناءً على ما سبق، فإن هذا الكتاب يعد طفرة؛ سواء من حيث منهجه العلمي غير المعهود في إطاره، أو من حيث توليفة موضوعاته، وهو يعد استكمالاً لمشروع العلاقات الدولية في الإسلام (***) الذي أشرفت عليه د.نادية مصطفى أيضاً، والصادر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

أقسام الكتاب:

لما كان التاريخ هو معمل الباحث السياسي، كان لابد من قواعد تنظيمية وإرشادية في تلك الحالة. وعليه، جاء القسم الأول من الكتاب تحت عنوان "التاريخ الإسلامي ومصادر بناء منظور حضاري"، مقدماً بنية تحتية نظرية وتاريخية للموضوع، الدراسة الأولى فيه تحت عنوان "التاريخ ودراسة النظام الدولي: رؤى نظرية ومنهجية مقارنة" والتي تناولت المنهجية المقارنة لدراسة التاريخ وكيفية توظيفه في التنظير للعلاقات الدولية، وكيفية الاقتراب من التاريخ الإسلامي اقتراباً نظمياً يتجاوز الاقتراب التقليدي. كما تقدم الدراسة إطاراً مقترحاً بغية اكتشاف أنماط تطور التفاعلات النظامية الإسلامية وكيفية توظيفها في بناء منظور حضاري إسلامي مقارن.

وتناولت الدراسات التاليتان العصرين المملوكي والعثماني، من اقتراب نظمي أيضاً؛ باعتبارهما ساحة اختبار لقضيتي الوحدة والجهاد، حيث دراسة أهم مفاصل وأنماط التفاعلات النظامية الإسلامية-الإسلامية أو الإسلامية-المسيحية، وعلى نحو يؤكد أن تلك التفاعلات لم تكن أبداً حبيسة الأطر العسكرية والسياسية، ولكن كانت أيضاً تفاعلات حضارية شاملة، حتى وإن طغت الأبعاد العسكرية والسياسية في بعض الأحيان على سواها.

لتخرج الدراسة الرابعة بنتائج حول التحليل النظامي للتاريخ الإسلامي، وخاصة من حيث بيان الأنماط التاريخية للتفاعلات حول القضيتين سالفتي الذكر (الجهاد والوحدة) وقواعد التفسير الأكفأ لهما. وفي هذا الإطار تم تناول عوامل الازدهار

** د.نادية مصطفى (إشراف عام ورئيس الفريق)، مشروع العلاقات الدولية في الإسلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996.

والتدهور من قبيل القدرات الذاتية للقوى الإسلامية، مدى الانهزام من الداخل، ومتغير القدرات العسكرية. وفيما يخص التفاعلات البنينة الإسلامية، فقد قرأت الدراسة مسارها من الوحدة إلى التعددية إلى التجزئة.

وبعد هذه البنية، توقف الكتاب في بقية دراساته على محطات زمنية ومكانية مفصلية، توضح ما سبقت الإشارة إليه من منطلقات، وعلى رأسها: كيف أن تاريخ المسلمين دولاً وشعوباً قد امتزج بتاريخ العالم تأثيراً وتأثراً، وأنه لا يرتبط فقط بموازين القوى العالمية وهياكلها وإنما أيضاً تفاعلات الشعوب؛ وذلك على عدة مستويات صنفت بناءً عليها أقسام الكتاب:

فركز القسم الثاني على "أنماط علاقات أركان الأمة الإسلامية الدولية"؛ حيث علاقات أركان الأمة الإسلامية (العربية-التركية-الإيرانية)، والتي كان للخارج دوماً تأثيراً سلبياً فيها، لاسيما في مراحل الضعف وسيطرة الروح القومية. وهو ما برهن الكتاب عليه في مراحل تاريخية مختلفة، عبر دراسات هذا القسم الثلاث: "الدولة العثمانية في دراسات التاريخ الإسلامي والنظام الدولي"، "محمد علي بين الدولة العثمانية والتوازنات الأوربية: عواقب التنافس بين القوى الإسلامية وضغوط التدخلات الأوربية"، "التدخلات الخارجية ومسيرة أزمات المنطقة: التجربة التاريخية وأفاق المستقبل".

هذا ليتأكد أن الخارج يُدع في كل زمان في إضعاف علاقات أركان الأمة ببعضها البعض، من خلال استخدام ورقة الاختلافات المذهبية والطائفية، وهنا تكمن ضرورة إيلاء مزيد من الاهتمام لتعميق أسس الأمن الحضاري بالأمة الإسلامية لدى الجميع؛ الشعوب والحكومات؛ الأمر الذي من شأنه الإسهام ليس فقط في مواجهة الخارج، وإنما كذلك توطيد الأواصر بين القوى الصاعدة بالأمة وغيرها من النماذج الأقل نمواً.

أما القسم الثالث في هذا الكتاب، فهو من أهم ما يميزه، حيث تناول "المسلمون المنسيون: الجذور التاريخية لصراعات ما بعد الحرب الباردة"، مما يسهم في إكمال الصورة حول التفاعلات التاريخية للأمة، وكيف كانت دوماً في قلب التفاعلات الدولية، تأثيراً أو تأثراً، سلباً أو إيجاباً. وهذا ما توضحه النماذج التالية:

"آسيا الوسطى والقوقاز بين القوى الإسلامية الكبرى وروسيا، إطار مقترح للتحليل السياسي للتاريخ الإسلامي"، "البوسنة والهرسك من إعلان الاستقلال وحتى فرض التقسيم"، "كوسوفا بين التاريخ والحرب من أجل الاستقلال"، "حول القومية والعلمانية والإسلام: من تاريخ البلقان إلى كوسوفا في مرحلة الاستعداد للاستقلال".

لقد عالجت هذه الدراسات صراعات تلك المناطق المنسية في العالم الإسلامي، والذي يؤكد ضرورة الاهتمام بالأبعاد التاريخية الدينية والثقافية. فرغم أن الصراعات تبدو فقط نتيجة انهيار الاتحاد السوفيتي وتفكيك يوغوسلافيا، إلا أن التحليل المنضبط يتطلب استدعاء تاريخ تدخل القوى الاستعمارية لاقتسام الدولة العثمانية.

وعلى نحو يتسق مع مفهوم هذا الكتاب للتفاعلات التاريخية باعتبارها لا تقتصر على السياسي دون غيره، اتساقاً مع ذلك يجيء القسم الرابع من الكتاب "نماذج تاريخية من قضايا مجتمعية"؛ ليقدم دلائل التفاعل الحضاري والتعارف بين الشعوب في أوقات مختلفة، سلمًا وحرًا؛ إذ يشتمل ذلك القسم على الدراسات الآتية: "نماذج تاريخية للتعارف خلال الحرب والدبلوماسية"، فعلى سبيل المثال لم يكن تاريخ الحروب الصليبية كله حربًا، وإنما تخلله بعض التعاملات الاقتصادية، حيث يبقى الاقتصاد حاضرًا في كثير من الأحيان مهما بلغت درجة العداء".

وتطرقت الدراسة التالية إلى "تطور وضع المرأة في تاريخ الإسلام ودلالات وضع الأمة الإسلامية في النظام الدولي الراهن"، حيث إن وضع المرأة في التاريخ الإسلامي ارتبط دومًا بما حاق بوضع العالم الإسلامي في النظام الدولي صعودًا وهبوطًا، ومدى ما تشهده من اختراق حضاري.

أما الدراسة الأخيرة في هذا القسم: "الأبعاد الثقافية للشراكة الأوروبية المتوسطية: خبرة التاريخ وتحديات الحاضر"، هذا المشروع للشراكة الذي يُرى باعتباره وجهًا آخر لتاريخ التدخلات الأوروبية في المنطقة، ومن ثم فالتعامل معه يتطلب القراءة الحذرة للتاريخ والمستقبل.

وختامًا، فإنه -كما تؤكد د.نادية مصطفى، ومما سبق استعراضه من دراسات ذلك العمل العلمي- هذا الكتاب مع كونه يقدم نماذج من الاقتراب النظمي الشامل

من تاريخ الأمة، وهو الاقتراب الشارح لنمط التفاعلات بين القوى الإسلامية وغيرها عبر مراحل من تطور التاريخ الإسلامي، إلا أنه لم يأت منفصلاً عن اقتراب التفاعلات الحضارية التاريخية الشارح لمناط الأفكار والقيم والهوية.